

تاريخ البحوث الأثرية في الغرب الجزائري آثار ما قبل التاريخ والمغرب القديم أنموذجا

د. فاطمة الزهراء بوزياني. - جامعة تلمسان - الجزائر

الملخص:

شهد الغرب الجزائري عدة أعمال أثرية سعت للبحث في تاريخ المنطقة، وقد جرت تلك الأعمال خلال فترة الاحتلال الفرنسي وبعد الاستقلال، ما أدى لكشف النقاب عن العديد من المخلفات الأثرية المنقولة والثابتة، التي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ والمغرب القديم، وقد ساهمت تلك الاكتشافات في تطور البحوث التاريخية والأثرية.

مقدمة:

لقد أجريت العديد من البحوث الأثرية التي تُعنى بما بل التاريخ والمغرب القديم، وكان لها الأثر الكبير في تطور الدراسات الأثرية وفهم تاريخ المنطقة، إذ امتدت منذ الاحتلال إلى الآن.

الأبحاث الأثرية في مجال آثار ما قبل التاريخ:

يبحث علم ما قبل التاريخ في أصل وتطور حضارات الإنسان قبل معرفته الكتابة⁽¹⁾، وعرفه سالزمان Z.SALZMANN، بأنه: فرع من فروع الأنثروبولوجيا، الذي يهتم بدراسة الثقافات من خلال البقايا المادية. وفي هذا المجال يعتمد الباحثون الأثريون في دراستهم على البقايا المتمثلة في الشقف الفخارية، ومخلفات المواد وأكوام الرمد والفضلات وكذا الرسومات والنقوش والأدوات المصنوعة من العظم والحجارة⁽²⁾. تساعد البقايا المادية المكتشفة في فهم المجتمعات والتعرف على الثقافة السائدة من عدة نواحي كما تتوفر لدى الباحث في علم ما قبل التاريخ إمكانية هائلة لإعادة بناء ماضي الإنسان⁽³⁾.

نماذج من المواقع الأثرية المنقبة:

ترجع بحيرة قرارة^(*) (التابعة لبلدية الرمشي) إلى العصر الباليوليتي الأسفل، وأُتلفت أجزاء منها أثناء استصلاح المناطق السهلية القريبة من الموقع في 1894م. ومن بين ما عُثر عليه: فؤوس محفوظة في متحف الإنسان بباريس وأدوات حجرية نُشرت في تقرير نتائج الحفريات المقدمة سنة 1899م من طرف م. بولي M. Boulé⁽¹⁾.

-
- (1) بن الشيخ حكيم، محاضرات ونصوص في ما قبل التاريخ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص16.
 - (2) حمدي عباس، المدخل إلى أكويولوجيا ما قبل التاريخ، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع، مصر، 2011، ص117-118.
 - (3) الطاهر عدواني، المغرب في عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1980، ص03،06. للمزيد يُنظر؛
 - (4) Claude BRAHIMI, **Initiation a la préhistoire de l'Algérie**, 2^{ème} édition, société - nationale d'édition et de diffusion, Algérie, 1978, p09.
- * (بحيرة قرارة: تقع هذه البحيرة في بلدية الرمشي شمال مدينة تلمسان، ولا تفصلها عنها مسافة كبيرة حوالي 2 كلم.

واكتُشف شمال شرق تلمسان، موقع أوزيدان الذي يرجع إلى الفترة الآشولية العليا، وحسب ما ذكر محمد الصغير غانم فإن اكتشافه كان في سنة 1874م من قبل ب. بالاري Paul. Pallary⁽²⁾، بينما يذكر عبد العزيز طارق ساحد في كتاباته، أن اكتشافه يرجع لنفس السنة، ولكن من قبل ألفريد شانكوني Alfred Chancogne وليس بالاري⁽³⁾.

إن أول من اكتشف الملاحي الصخرية بالمويلح^(*) بول بالاري في سنة 1899م، وطلب من أوغست باربا August Barbin إجراء حفرة أثرية، ووفر له ستيفان قزال الدعم المالي بصفته مديرا للمتاحف آنذاك، وأشرف على تنقيب الموقع لمدة 29 يوما وذلك خلال سنة 1908م. بعدها نُقلت المحلفات الأثرية إلى متحف البارود بالجزائر العاصمة، في حين حُوِّلَت المستحثات إلى مخبر الجيولوجيا التابع للمدرسة العليا للعلوم، ليُستأنف العمل من جديد في شهر أوت من سنة 1910م.

نُشرت نتائج البحث ضمن مقالين بمجلة الجمعية الجغرافية والأثرية لمقاطعة وهران سنة 1910م و1912م على التوالي، وتم التعرف من خلالها على المكتشفات الأثرية الحجرية والبقايا الحيوانية والآدمية والحلي⁽⁴⁾.

لقد تمّ اكتشاف مغارات "بودغن" الواقعة أسفل هضبة لالة ستي، في سنة 1875م من طرف ج.بليشي G.Bleicher أين عثر على فؤوس مصقولة، ولكن لا يوجد لها أثر في المتاحف ولم تُذكر في المراجع⁽⁵⁾.

أقيمت العديد من الحفريات في مواقع أثرية يعود تاريخها إلى ما قبل التاريخ، ونتج عن ذلك تراكم زحم معرفي جدّ مهم حولها، كما ساهمت في فهم المجتمعات والثقافة السائدة في المنطقة إبان عصور ما قبل التاريخ، وتم جمع مخلفات وشواهد مادية معتبرة ذات صلة بالطقوس الدينية والنشاط الاقتصادي في هذه المواقع.

من بين أقدم الحفريات الأثرية التي أقيمت في منطقة الغرب الجزائري حفرة موقع تيغنيف الأثري^(*) المكتشف في 1870م، وشرع الحفر فيه سنة 1872م.

وهي من المواقع التي استهوت أنظار الباحثين الفرنسيين، حيث تم جمع ما يقارب 130 كغ من عظام الحيوانات الضخمة، وتم إعلان ذلك بنتائج البحث الأثري في الموقع أثناء أشغال مؤتمر ما قبل التاريخ لسنة 1888م⁽¹⁾.

5) محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات...، مرجع سابق، ص24.

6) نفسه، ص 24.

7) عزيز طارق ساحد، "آثار ما قبل التاريخ وفجره بمنطقة تلمسان: حالة معارف"، أعمال ملتقى دولي: تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني و الميراث الفني، ج:01، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ص39.

* (المويلح: تقع هذه الملاحي على بُعد 05 كم، شمال مدينة مغنية، على الطريق الرابط بين مغنية وندرومة، سميت بهذا الاسم لقربها من واد المويلح، كما تبعد عن حمام الشيفر ب: 200م.

للمزيد ينظر: ستي صدوق، "تلمسان وأحوازاها في العصور القديمة"، ع: 02، عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي "تاريخ الجزائر"، جامعة وهران، الجزائر، 2011، ص 30.

8) نفسه، ص 30-31.

9) عزيز طارق ساحد، مرجع سابق، ص44.

* (موقع تيغنيف الأثري: يقع الموقع غرب قرية باليكواو، ويبعد عن ولاية معسكر بحوالي 20 كم

الأبحاث الأثرية في مجال المغرب القديم:

أسس كل من الباحثين كامبس Camps ول. بالو L. Balout علم فجر التاريخ أثناء دراستهم لمواقع أثرية جزائرية، وحدد موضوع هذا العلم بقوله إنه: "علم البربر الذين ظلوا خارج التأثير الأجنبي عبر العصور، وبما أن هؤلاء لا يزالون في كثير من الجهات متمسكين بثقافات بدائية تعود أصولها إلى ما قبل التاريخ، فإن فجر التاريخ بالنسبة لهؤلاء مازال معاشاً"⁽²⁾.

إن هذا المفهوم يحمل في طياته أفكارا استعمارية لا تتماشى وأهداف بحثنا، ولذلك ارتأينا توظيف مصطلح آخر هو المغرب القديم والذي اعتمده باحثون آخرون.

نماذج من الهياكل المعمارية الآثار الفنية المكتشفة:

عُثر بموقع الأندلسيات^(*) بوهرا ن على كتابة لاتينية ترجع إلى 250 سنة ق.م، ومقبرة بونية يرجع تاريخها إلى ما بين القرنين 02-03 ق.م، أثاثها الجنائزي محفوظ بمتحف وهران، كما تمّ كشف لوحيتين من الفسيفساء وتيجان وأعمدة ومصاييح وكتابات لاتينية ورأس فتاة من الرخام⁽³⁾.

تعود أول إشارة وردت حول المعالم الأثرية ببطيوة (وهران) إلى البكري، الذي تحدث عن مدينة رومانية قائلا: "مدينة أرزأو وهي مدينة رومانية... يحار من دخل إليها لكثرة عجائبها" كما جاء ذكر بعض معالمها الأثرية في كتابات رحلة شأو Shaw إثر زيارته للموقع الأثري ومعاينته لبعض البقايا الأثرية كالتيجان وبقايا الفسيفساء. وبدأ أول عمل بالموقع الأثري مع جورج سيمون George Simon في سنة 1894م، وتوقفت الأعمال التنقيبية به بسبب نزاع مع مالك الأرض المحيطة بالموقع، ليستمر التنقيب لاحقا في 1897م⁽⁴⁾.

ثم قامت مالفا موريس فانسان M.M. Vincent من سنة 1953م إلى سنة 1960م بتنقيب الموقع في مواسم مختلفة. ساهمت هذه التنقيبات في الكشف عن بعض المعالم الأثرية كالمباني العمومية ومنشآت الري والمنازل في حين بقيت بعض المعالم مجهولة بسبب توقف التنقيبات⁽⁵⁾.

يعد أدريان بربروجير Adrien Berbrugger^(*)، من بين المهتمين بالأبحاث الأثرية في منطقة تيسمسيلت، حيث أسفرت الأعمال التي قام بها سنة 1843م، عن اكتشاف أربعة مواقع أثرية تعود إلى الفترة الرومانية وهي: أغبال وسينالغن وعين الرباط وعين تازا⁽¹⁾.

(10) محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات.....، مرجع سابق، ص29.

(11) محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)، دار الحكمة، الجزائر، 2003، ص 16.

* (موقع الأندلسيات: يبعد الموقع الأثري عن مدينة وهران بما يقارب 35 كم، ويقع بين خطي طول 0.8953° - وخط عرض 35.7058°.

(12) بوروية (رشيد)، وهران فن وثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر: د ت، ص20.

(13) محمد عبد المؤمن، "المعالم الأثرية ببطيوة"، ع: 6-7 / جوان- ديسمبر، مجلة عصور، مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران، 2005، ص268-269.

(14) نفسه، ص268-269.

كما أجريت أعمال أثرية في الموقع الأثري المسمى "الخربة" (*)، من قبل ستيفان غزال، ومارشون Marchand، وبراش Brèche، فحسب مارشون إن الموقع عبارة عن حصن قديم مساحته (40م×30م)، إضافة إلى منشآت أخرى تُغطي الهضبة مساحتها تصل إلى 200م طولاً و100م عرضاً. وبقي تأريخ الموقع مجهولاً لعدم توفر دليل مادي، لكن من المؤكد أنه يعود إلى الفترة الرومانية نظراً لتطابق زخارف التيجان المعثور عليها بالموقع بزخارف تيجان عين تَكْرِية التي يعود تاريخها إلى القرن 03م⁽²⁾.

وهناك مكتشفات أثرية بالمنطقة منها: قبران حجريان وعمود حجري وثلاثة تيجان حجرية وجزء من الجدار الخارجي الذي تميز بنقوش هندسية بسيطة⁽³⁾. ووجد مقابل الهضبة قبر حجري مكسور جزئياً يشبه القبرين السابقين، وإلى جانبه غطاء حجري مكسور، لذلك يُحتمل أن تكون هذه الهضبة قد استُعملت كمقبرة⁽⁴⁾.

اعتبر القرن 19م، قرن الإهتمام باللغة والكتابة اللوبية⁽⁵⁾. وأكثر الباحثين اهتماماً بالنقوش اللوبية من الفرنسيين جيزينيوس Gésénus والعالم الفرنسي ف.دي سولسي F.DE. Saulsy. كما شجعت الحكومة الفرنسية الباحثين على التعمق في موضوع النقوش لعدة أسباب أهمها: إثارة النزعة القبلية بين السكان الأصليين وإثارة التفرقة بينهم لترسيخ جذورها الاستعمارية بالمنطقة⁽⁶⁾.

وبأرشفون اكتشف ج. فويلمو G.Vuillement سنة 1955 حي بوني يرجع إلى الفترة البونية ومجموعة من المقابر، وبنفس السنة اكتشف ليغلاي Leglay مقبرة ومكتشفات أثرية من الفخار والحلي والأسلحة⁽⁷⁾. كما تمّ العثور على جرة فخارية بأحد المقابر حملت علامة لوبية^(*)، رُجح أنها تعود إلى القرن 4 ق.م⁽¹⁾.

* (أدريان بربروجير: منذ دخوله للجزائر في 1834م أبدى إهتمامه بالمخطوطات الجزائرية، إذ تمكن من جمع 800 مخطوطة) ساعدته تنقلاته مع الجيش الفرنسي أثناء الحملات العسكرية على الجمع) أثناء الحملة الفرنسية على مدينة قسنطينة في 1837م. شغل منصب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية، للمزيد يُنظر:

- حنيفي هلايلي، المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الاستعمارية بالجزائر (1830م-1962م)، ع: 07، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، الجزائر، 2005، ص 151، 153.

15) علي خيدة، محاولة تنميطية لفخار وخزف موقع تازا برج الأمير عبد القادر (ق 13هـ / 19م)، ماجستير آثر إسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 22.

* (الموقع الأثري الخربة: يقع الموقع في ولاية تيسمسيلت، غرب بلدية سيدي العنزي على بعد حوالي 03 كلم عبد القادر دحدوح، المرشد الأنيس إلى تاريخ وآثار عاصمة الونشريس، أنجديات للنشر والتوزيع والإشهار، الجزائر، 2012، ص 29-30.

17) نفسه، ص 29-30.

18) نفسه، ص 31.

19) مها عيساوي، النقوش النوميديّة في بلاد المغرب القديم... قبيل الاحتلال الروماني، ط: 01، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 78.

20) نفسه، ص 77.

21) S.GSELL, Atlas archéologique de l'Algérie, Algérie, 1902, p205.

* (اللوبيون: يعد اللوبيون من السكان الأوائل لبلاد المغرب القديم. للمزيد يُنظر، مها عيساوي، مرجع سابق، ص 09.

وبالنسبة للمقبرة التي اكتشفت من قبل فويلومو، فتقع في الجهة الشمالية لجزيرة أرشقون (غرب المنارة)، حيث تضم المقبرة 144 قبرا أغلبها يحتوي على رماد الموتى بعد حرقها، وفي 68 قبرا، وُضع الرماد في أواني فخارية مسدودة الفوهة بحجر مسطح. كما أن هناك قبور غنية بالأدوات والأثاث. وضمت هذه المقبرة العديد من الصناعات الفخارية والتماثيل والحلي والأسلحة، ويؤكد وجود المباني السكنية على أن الجزيرة عرفت الحياة البشرية منذ القرن 7 ق.م (دليل على الوجود الفينيقي في غرب المتوسط)⁽²⁾.

اكتُشف بحفريات سيغا التي أجراها كرمال سنة 1937م، عن معلم أثري ومجموعة من النقود ومصابيح وفخار⁽³⁾. ويعتد ضريح الملك سيفاقس بسيغا من بين الأضرحة التي لفتت انتباه المنقبين، فأولى الحفريات التي استهدفته كانت من طرف الفرنسي فويلمو ما بين سنة 1960م و1961م، كما قامت بعثة ألمانية بالتنسيق مع مختصين جزائريين بحفريات مُنظمة في موقع سيغا^(*) بين سنتي 1977-1979⁽⁴⁾.

وفيما يتعلق بالمعلم فقد تم التعرف عليه أكثر من خلال إعادة تشكيل مظهره العام اعتمادا على تصنيف ودراسة مختلف القطع الهندسية والزخرفية المتناثرة بأرجائه⁽⁵⁾.

لقد ترك الرومان بصماتهم في العديد من المواقع الأثرية بمدينة تلمسان، خاصة وأن هذه المدن كانت تحتل موقعاً استراتيجيا مهما.

خاتمة: ساهمت البحوث الأثرية المنجزة في الغرب الجزائري إلى اكتشاف العديد من الآثار المعمارية والفنية، التي ساهمت في تسليط الضوء على العديد من جوانب الحياة المعاشة لدى إنسان ما قبل التاريخ. كما أدت هذه الآثار المنقولة والثابتة المعروضة بالمتاحف أو المواقع الأثرية، إلى استقطاب أنظار السياح إلى الموروث الثقافي الجزائري.

22) مها عيساوي، مرجع سابق، ص350.

23) عبد القادر بوعزم، سيغا (siga) تاكمبريت عاصمة الملك صيفاقس، ع:21، مجلة عصور، منشورات مخبر البحث التاريخي(مصادر وتراجم)، جامعة وهران، الجزائر، 2013، ص 19.

24) S.GSELL, Op-cit, p82.

* (موقع المدفن الملكي بسيغا: يقع الموقع بالضفة اليمنى من وادي تافنة، ويبعد بحوالي 01 كلم عن قرية بني غانم. من الغرب يشرف على مدينة سيغا ويحده من الجهة الشمالية البحر المتوسط.

25) رابح لحسن، أضرحة الملوك النوميد و المور، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص227، 223. وينظر: فاضل لخضر، مرجع سابق، ص 205.

26) رابح لحسن، نفسه، ص227، 223. وينظر: فاضل لخضر، نفسه، ص 205.